

الوظيفة الإنجازية للنسق اللغوي

أ.د. ميثم مهدي الحمّامي

الباحثة سرى فاضل عيسى

كلية التربية الأساسية/ جامعة الكوفة

مدخل:

من وظائف النّسق النّصي إنّه لأبْد من وجودٍ مهمّةٍ قوليّةٍ لإنجازها، فوجوده ليس مُجرّد وجودًا جماليًّا داخل النّص وإنّما لإنجاز تلك المهمّة القوليّة المُراد إيصالها وإفهامها للمتلقّي، إذ وجد الباحثون تعبيرات في اللغة لا يُراد بها مُجرّد الإخبار عن شيءٍ ما، وغير خاضعة لمعيار الصدق والكذب، بل يُراد بها إنجاز أعمالٍ مُعيّنة بالقول، بناءً على ما يتضمّنه ذلك القول من قوّة إنجائيّة، فأطلقوا على هذه التعبيرات اسم (الأفعال الكلاميّة) ^(١)، وهي ما تُسمى بنظرية (أفعال الكلام).

المبحث الأول: الوظيفة الإنجازيّة للنسق اللغوي عند أوستين:

يعد الفيلسوف المُعاصر (ج. ل. أوستين) مؤسساً لنظرية الأفعال الكلاميّة، حيث تتجاوز اللغة في مفهومه وظيفة الاتصال إلى وظيفة التأثير ^(٢)، وأيضاً اهتم أوستين بإنجاز فلسفة دلاليّة تهتم بالمضامين والمقاصد التواصليّة إذ كان يُلح على القيمة التداوليّة للعبارات اللغويّة، كما أدخل مفهوم (القصدية) في فهم كلام المُتكلّم وفي تحليل العبارات اللغويّة ^(٣)، و "تتجلّى مقولة (القصدية) في الربط بين التراكيب اللغويّة ومُراعاة غرض المُتكلّم والمقصد العام من الخُطاب، في إطار مفاهيمي مُستوفٍ للأبعاد التداوليّة للظاهرة اللغويّة" ^(٤)، ووفق رأي أوستين لم يعد لمُنشئ الكلام بدٌّ من ذكر كلمةٍ في نصّه إلا وقد قصد من ورودها قصداً جاداً، أي لم تعد للاعتباطيّة في النصوص وجود بعد هذه النظرية، ولأبْد للكاتب من توافر قصديّته ضمن مفرداته المترابطة مع بعضها حتى يُنجز فعل كلامه وإيصاله للمتلقّي، ولم يعد المعنى مُرتبطاً باللفظ أو النسق اللغوي في مُستوياته الشكلية، بل صار من الركائز المهمّة لحصول الفهم والإفهام الوعي بالسياقات

الاجتماعية التي يحدث فيها الكلام^(٥)، فوظيفة إنجاز الفعل للقول وإفهامه للمتلقّي، بواردها تؤثر بالمجتمع، بل هي إن لم تكن مؤثرة فلا فائدة من قولها، أو بالأحرى لا تُعد وظيفة فعل قولي أنجز شيئاً. ويرى أوستن أنّ دلالة الجملة في اللغة العادية، لا تكون بالضرورة هدفها الإخبار، ولا تُحال دائماً على الواقع فتحتمل الصدق والكذب، ففي المثال (أعلن عن افتتاح الجلسة)، كأنه أمرٌ من المتكلم بمباشرة أشغال الجلسة، أو قول أحدهم لمن يدخل عليه دون أن يُغلق الباب: (تركت الباب مفتوحاً)، فيتحرك الداخل إلى إغلاق الباب^(٦)، فالمُتكلّم ليس همّه أن يُنبّه المُخاطب إلى أنّ الباب لا يزال مفتوحاً، وإنما أراد من خلال عبارة (تركت الباب مفتوحاً) أن يستغرب من فعل الداخل من تركه الباب مفتوح في حين إنّ المقام يستوجب غلق الباب، لذلك يُسارع الداخل إلى غلق الباب، وكأنه سمع نبذة أمرٍ في كلام المتكلم، وهذه هي وظيفة الكلام الإنجازية، لكن قبل ذلك كان مقياس الصدق والكذب هو الوحيد للحكم على دلالة جملة، مما حصر العبارات اللغوية على الخبرية منها، كأن تقول: (الجو جميل) فهذه الجملة صادقة إذا طابقت الواقع، وكاذبة إذا كانت غير ذلك، وهذا ما تقوم عليه نظرية أفعال الكلام أو الأفعال الإنجازية التي لا يحكمها مقياس الصدق والكذب^(٧).

أمّا الفعل الكلامي فهو في رأي أوستن: "التصرف (أو العمل!) الاجتماعي أو المؤسّساتي الذي يُنجزه الإنسان بالكلام، ومن ثمّ ف (الفعل الكلامي) يُراد به الإنجاز الذي يُؤديه المتكلم بمجرد تلفّظه بملفوظاتٍ معينة، كالأمر، والنهي، والوعد، والسؤال، والتعيين، والإقالة، والتعزية، والتهنئة"^(٨)، ولنظرية الأفعال الكلامية أصولٌ في التراث العربي، فقد عدوا العرب معاني الأساليب العربية المختلفة، خبرية كانت أم إنشائية، ودلالات (حروف المعاني)، ودلالات الخوالب، وأصناف أخرى من الصيغ والأساليب العربية أفعالاً كلامية^(٩)، فالأساليب النحوية أو دلالات المفردات بحسب ورودها في المعجم، والأساليب المختلفة الواردة في اللغة العربية بنوعها الخبري والإنشائي، تهذّب إلى إنجاز فعل القول وإيصاله إلى المتلقّي من دون بهم، إذ يُعد الفعل الكلامي "نشاطاً مادياً نحوياً يتوسّل أفعالاً قوية لتحقيق أغراض إنجازية (كالطلب والأمر والوعد والوعيد... الخ)، وغايات تأثيرية تحضّ ردود فعل المتلقّي (كالرفض والقبول)"^(١٠)، وفان دايك يرى بأنّ

الأفعال الكلامية أو الإنجازية هي إذا ما صغنا عبارةً هدفها الوعد أو الطلب أو النصح أو غير ذلك، فإننا بذلك نُنجز فعلًا اجتماعيًا^(١١).

وقد وضع أوستن شروطاً يجب أن تتوفر في الأفعال الإنجازية أو الأدائية، وإلا كان الأداء غير موفقاً ومعيّياً، وهي^(١٢):

أولاً: الشروط التكوينية وهي:

١. وجود إجراء عُرفي مقبول، وله أثر عُرفي مُعيّن كالزواج مثلاً أو الطلاق.
٢. أن يتضمن الإجراء نُطق كلمات مُحدّدة ينطق بها أناس مُعيّنون في ظروف مُعيّنة.
٣. أن يكون النَّاس مُؤهلين لتنفيذ هذا الإجراء.
٤. أن يكون التنفيذ صحيحاً.
٥. أن يكون التنفيذ كاملاً.

ثانياً: الشروط القياسية وهي:

١. أن يكون المُشارك في الإجراء صادقاً في أفكاره.
٢. أن يكون المُشارك في الإجراء صادقاً في مشاعره.
٣. أن يكون المُشارك صادقاً في نواياه.
٤. أن يلتزم بما يلزم نفسه به.

والوظيفة الإنجازية للخطاب عند أوستن تقوم على ثلاثة جوانب مُتلازمة في الفعل الكلامي، لا تتفك بعضها عن بعض سوى بالتسمية هي^(١٣):

١. الفعل اللفظي: وهو يتألّف من أصوات لغوية تنتظم في تركيب نحوي صحيح ينتج عنه معنى مُحدّد وهو المعنى الأصلي، وله مرجع يحيل عليه.
٢. الفعل الإنجازي: وهو ما يُؤديه الفعل اللفظي من معنى إضافي يكمن خلف المعنى الأصلي.
٣. الفعل التأثيري: ويُقصد به الأثر الذي يُحدثه الفعل الإنجازي في السامع.

وقد فطن أوستن إلى أن الفعل اللفظي لا ينعقد الكلام إلا به، والفعل التأثيري لا يلازم الأفعال جميعاً فمنها ما لا تأثير له في السامع، فوجّه اهتمامه إلى الفعل الإنجازي حتى غدا لبّ هذه النظرية فأصبحت تُعرف به أيضاً، فتُسمى أحياناً النظرية الإنجازية، ويُستنتج من ذلك إنَّ الجانب الإنجازي هو أهم هذه الجوانب، فلو قيل لك: إنَّ خلف الباب أفعى، فهذه الجملة مُجرّد إخبار، لكنَّ الفعل الإنجازي هو ما تتضمنه الجملة من تحذير للسامع بخطورة ما خلف الباب، وذلك يُمثل إنجازاً توجيهاً، فينتج عن هذا التحذير استجابةً من المُتلقي تتمثل بالهرب من الأفعى، أو قتلها، أو الفرع منها^(١٤)، وعلى الأساس من القوّة الإنجازية صنّف أوستن الأفعال الكلامية خمسة أصناف، هي^(١٥):

١. أفعال الأحكام: وهي التي تتمثل في حكم يُصدره قاضٍ أو حُكم، نحو: أبرئ، أُلزم، أضمن، أميز، أثنم، أقيم، أشخص، وغيرها.
٢. أفعال القرارات: وتتمثل في اتخاذ قرار بعينه كالأذن والطرْد، والحرمان، والتعيين.
٣. أفعال التعهّد: وتتمثل في تعهّد المُتكلّم بفعلٍ شيءٍ، مثل الوعد، والضمان، والتعاقد، والقسم.
٤. أفعال السلوك: وهي التي تكون ردُّ فعل لحدثٍ ما، كالاعتذار، والشُكر، والمواساة، والتحدّي.
٥. أفعال الإيضاح: وتُستخدم لإيضاح وجهة النظر أو بيان الرأي مثل الاعتراض، والتشكيك، والإنكار، والموافقة، والتصويب، التخطئة.

المبحث الثاني: الوظيفة الإنجازية للنسق اللغوي عند جون سيرل:

وبعد أوستن، جاء تلميذه جون سيرل وأحكم وضع الأسس المنهجية التي تقوم بها النظرية الإنجازية، وما قدمه عن الفعل الإنجازي والقوّة الإنجازية، كان كافياً لجعل الباحثين يتحدثون عن (نظرية سيرل للأفعال الكلامية) بوصفها مرحلة أساسية تلت مرحلة الانطلاق عند أوستن^(١٦)، وبالتالي أستطيع القول إنَّ سيرل هو من عزز القول في قوّة الخطاب الإنجازية، ويُمكن إيجاز ما جاء به سيرل كالاتي^(١٧):

أولاً: نصّ سيرل على إنَّ الفعل الإنجازي هو الوحدة الصغرى للاتصال اللغوي، وأنَّ للقوّة الإنجازية دليلاً يُسمى دليل القوّة الإنجازية، يُبين لنا نوع الفعل الإنجازي الذي يُؤديه المُتكلّم بنُطقه للجملة، ويتمثل في اللغة

الإنجازية في نظام الجملة والنبر، والتنغيم، وعلامات الترقيم في اللغة المكتوبة، وصيغة الفعل، وما يُسمّى الأفعال الأدائية.

ثانياً: الفعل الكلامي عنده أوسع من أن يقتصر على مُراد المُتكلِّم، بل هو مُرتبط أيضاً بالعرف اللغوي والاجتماعي.

ثالثاً: طوّر سيرل شروط المُلاءمة عند أوستن فجعلها أربعة، وطبّقها تطبيقاً مُحكماً على كثير من الأفعال الإنجازية، وهذه الشروط هي:

١. شروط المُحتوى القضوي: ويتحقّق بأن يكون للكلام معنى قضوي (نسبةً إلى القضية التي تقوم على مُحدّث عنه أو مرجع...)، وهو المعنى الأصلي للقضية، ويتحقّق في فعل الوعد مثلاً إذا كان دالاً على حدث في المُستقبل يلزم به المُتكلِّم نفسه.

٢. الشرط التمهيدي: ويتحقّق إذا كان المُتكلِّم قادراً على إنجاز الفعل.

٣. شرط الإخلاص: ويتحقّق حين يكون المُتكلِّم مُخلصاً في أداء الفعل فلا يقول غير ما يعتقد، ولا يزعم أنّه قادر على فعل ما لا يستطيع.

٤. الشرط الأساسي: ويتحقّق حين يُحاول المُتكلِّم التأثير في السامع لينجز الفعل^(١٨).

رابعاً: قدّم سيرل تصنيفاً بديلاً لما قدمه أوستن من تصنيف للأفعال الكلامية يقوم على ثلاثة أسس منهجية هي: الغرض الإنجازي، واتجاه المُطابقة، شرط الإخلاص، وهذه قد جعلها خمسة أصناف أيضاً هي: الإخباريات، والتوجيهات، والالتزامات، والتعبيرات، والإعلانات^(١٩).

خامساً: استطاع سيرل أن يميّز بين الأفعال الإنجازية المُباشرة والأفعال الإنجازية غير المُباشرة، فبين أنّ المُباشرة هي التي تُطابق قوتها الإنجازية مُراد المُتكلِّم أي يكون ما يقوله مُطابقاً لما يعنيه، أمّا غير المُباشرة فهي التي تُخالف فيها قوتها الإنجازية مُراد المُتكلِّم، وذلك نحو: إذا قال رجل لرفيق له على المائدة: هل تُتاوطني الملح؟ فهذا فعل إنجازي غير مُباشر، إذ قوته الإنجازية الأصلية تُدلّ على الاستفهام يحتاج إلى

جواب، وهو مصدر بدليل الاستفهام (هل)، لكن الاستفهام غير مُراد للمتكلم، بل هو طلب مُهذَّب يُؤدِّي معنى فعل إنجازي مُباشر هو: ناولني الملح (٢٠).

وقد ذكّر سيرل أنّ لكل فعل إنجازي مُحتوى (قضوي) وهو عبارة عن القضية التي يُعبّر عنها ذلك الفعل، وذلك المُحتوى ما هو إلا قاسمٌ مُشترك بين أفعال إنجازية مُختلفة في أشكالها ووظائفها، فمثلاً وجود هذه الفروق في هذه الجُمَل:

- لتتركِ العُرفة رجاءً.
- هل ستتركِ العُرفة رجاءً؟
- ستتركِ العُرفة.

وهذه المنطوقات مُشتركة بِمُحتوى قضوي واحد وهو (ترك العُرفة) إلا أنّ معنى كُل جُملة منطوقة مُختلف عن الأخرى، فالأولى طلب، والثانية سؤال، بينما الثالثة توقُّع (٢١)، وكُل جُملة تُؤدِّي إنجازاً مُختلفاً عن الأخرى، وبالتالي اختلاف غرض القصدية الموجود في معنى كُل جُملة، مما يُؤدِّي بطبيعة الحال إلى اختلاف التأثير عند المُتلقي بحسب قصد كُل واحدة منها، كما تختلف قوى المنطوق الواحد الإنجازية، مثل ما قاله الجاحظ في كتابه البُخلاء: "وحدّثني عمرو بن نهيو، قال: تغدّيتُ يوماً عند الكندي، فدخل عليه رجل كان له جاراً، وكان لي صديقاً، فلم يعرض عليه الطعام ونحن نأكل، وكان أبخل من خلق الله، قال: فاستحييت منه، فقلتُ: سبحان الله! لو دنوت فأصبتَ معنا ممّا نأكل! قال: قد والله فعلت، فقال الكندي: ما بعد الله شيء!" (٢٢)، فالمنطوق: لو دنوت فأصبتَ معنا ممّا نأكل، يُمكن أن يعرض مُحتواه القضيوي بقوى إنجازية عدّة، نحو:

- ادنْ، فاصبُ معنا ممّا نأكل!
- هل تدنو، فتُصيب معنا ممّا نأكل؟
- ألا تدنو، فتُصيب معنا ممّا نأكل؟
- لو دنوت، فأصبتَ معنا ممّا نأكل؟

فهذه الأفعال الكلامية الإنجازية الأربعة تختلف في القوة التي يُعرض بها غرض إنجازي واحد، هو الطلب، فالأولى بقوة الأمر، والثانية بقوة الالتماس أو الدعوة، والثالثة بقوة العرض، والرابعة بقوة التمني، وبالتالي يُمكن للمنطوق الواحد أن يمتلك قوى إنجازية مختلفة^(٢٣)، ويُستنتج من ذلك إنَّ في النص الواحد توجد قوة إنجازية كبيرة داخله، فإنَّ في كل جملة منطوقة أكثر من احتمال إنجازي، ووظيفة النسق الإنجازية هي تبيان ما يُنجز داخل النص من تأدية الفعل الكلامي مهمته، وإيصال المعاني للمتلقين، وإن لم يتحقق ذلك فهذا يعني فشل تلك الوظيفة الإنجازية داخل النص.

ويذكر سيرل الفرق بين الأفعال التمريرية والأفعال التأثيرية التي جاء بها جون أوستن، إذ يُفرق بينها في كتابه (العقل واللغة والمجتمع)، شارحاً بأنَّ الأفعال الكلامية هي النفثات السمعية في موقف كلامي اعتيادي، كأن أصدر حكماً أو أسأل سؤالاً أو غيرها، ويطلقها المُتكلم قصداً، وهذه الأفعال الكلامية عمدها أوستن (بالأفعال التمريرية)، وما أسماه أوستن بـ (الأفعال التأثيرية) هي تلك الأفعال التي تذكر آثار ذلك الفعل التمريري على المُستمع، وهذه الأفعال لا تُؤدى قصداً بالضرورة، إذ قد تدفع شخصاً ما إلى فعل شيء ما، أو تزعجه، أو تُحيره دون أن تقصد ذلك^(٢٤)، والأفعال التأثيرية هي نتيجة مُترتبة على قول المُتكلم شيئاً ما، مع القصد به، ومُحاولة توصيل ما يعنيه للمُستمع، وفلاحه في ذلك، يعني أنه قد أدى فعلاً تمريرياً^(٢٥).

ويرى سيرل أنَّ الكلام المنطوق لا يندب وأن يكون موافقاً للعُرف الاجتماعي، وإلا لن ينجح المُتكلم في أن يُنجز بواسطة كلامه شيئاً، وحول ذلك ضرب سيرل مثلاً، قائلاً: لو أن هناك جندي أمريكي في الحرب العالمية الثانية وقد أسروه الإيطاليين، ولو أراد هذا الجندي إقناع هؤلاء الإيطاليين بأنه من حلفائهم الألمان، بغبة إطلاق سراحه، هو أن يُخبرهم بالألمانية أو بالإيطالية أنه ضابط ألماني، ولنفترض أنه لا يعرف قدرًا كافيًا من الألمانية أو الإيطالية لفعل ذلك ويُراوذه الأمل في أنهم لا يعرفون الألمانية بالقدر الذي يكفي لإدراك حقيقة حُطته، ولنفترض أنه لا يعرف من الألمانية إلا بيتاً واحداً يتذكَّره من قصيدة حفظها في المدرسة الثانوية، ولذلك يخصُّ الجنود الإيطاليين بالجملة الآتية:

(٢٦) Kennst du das Land, wo die Zitronen blühn?

ولكن بعد نُطقه لهذه الجُملة الألمانية هل يعني بأنّه ضابط ألماني؟ الجواب عند سيرل: لا؛ وذلك لأنّ الجندي الأمريكي يجهل العرف اللغوي والاجتماعي عند الألمان في عدم مُناسبة استخدام هذه الجُملة في هذا السياق، فإنّ معنى المُتكلّم للكلام أكثر من أن يكون مسألة قصد، إنّه أيضًا مسألة عُرْف لغوي (٢٧)، أي أن يكون المنطوق مُطابق لمقتضى الحال، حتى يُفهم بالطريقة المُراد أن يُفهم بها عندما نطقها المُتكلّم. ومن خلال ذلك يرى التداوليون مدى أهميّة الأفعال الكلاميّة لا من خلال كونها أخبارًا تنقل الوقائع في العالم الخارجي مُحتملة الصدق والكذب، وإنّما من خلال كونها ناجحة أو فاشلة، أو هل هي مُحققة لغرض القصدية وإنجاز القول أم لا، إذ لا تُعتبر هذه الأفعال ناجحة ما لم تُجز ذلك الفعل القول في مقام ما (٢٨)، ولذلك فإنّ مقاصد الكلام ركيزة في التفريق بين المعنى التعبيري، أي معنى الكلمات في الملفوظ، وبين قوّة الأفعال الغرضيّة؛ أي النتيجة التي يقصد المُرسِل نقلها، وإنّ فهم مقاصد الآخرين مهمّ لنجاح التخطيط في التفاعل (٢٩)، أي إنّ فهم قصد المُرسِل مهم، حتى تتمّ عمليّة التفاعل وتبادل المعلومات بين المُشاركين في عمليّة التواصل.

وبعد أوستن وسيرل جاء لسانيون وأكملوا القول في نظريّة الأفعال الكلاميّة وخاصةً ما يتعلّق بالأفعال الإنجازيّة، ومفهوم القوّة الإنجازيّة، ومن هؤلاء:

- أوزالد ديكر: ذكر شروط الإنجازيّة، بقوله: (تكون جملة ما إنجازيّة إذا أمكنَ بعض من ملفوظاتها أن يكون كذلك، ويكون فعل ما إنجازيًا إذا أمكنه صياغة الفعل المحوري لجملة إنجازيّة).

- ديترو وريكاناتي: هما من الذين انتقدوا أوستن في بعض أقسام الأفعال، إلى جانب بنفنست وسيرل وغيرهما، واقترحا أربعة أقسام فقط، هي: أفعال إنجازيّة، وأفعال إدراكيّة، وأفعال قوّة الإنجاز وأفعال قوّة الإدراك (٣٠).

وهنا لا بُدّ من الذكر أنّ الجيل الأوّل من أصحاب نظريّة الأفعال الكلاميّة المُتمثّل بجون أوستن وجون سيرل اقتصرَ جُهدهم في تطبيق نظريتهم على الجُملة فقط في بيان القوّة الإنجازيّة الكامنة في القول، ولم يرتقوا

إلى مستوى البحث عن فعل الإنجاز الكلي للخطاب الناتج عن بنيته النصية الكبرى، بينما تجاوز أصحاب نظرية الأفعال الكلامية من الجيل الثاني المتمثل بفان دايك والغربيين أمثال اللغويين الألمان فوندرليش وايزنبرج وبرينكر الجملة إلى بحث الوظيفة الإنجازية للخطاب في بنيات نصية أكبر^(٣١)، وأطلق عليه "فعل الكلام الإجمالي الذي يؤديه منطوق الخطاب الكلي والذي تُنجزه سلسلة من أفعال الكلام المختلفة"^(٣٢)، فهذه السلسلة من الأفعال الإنجازية تُساعد فعلاً إنجازياً معيناً وتدعمه على إتمام المعنى وإفهام القصد، وحول ذلك يرى اللغوي الألماني كلاوس برينكر إن الأفعال الإنجازية تقوم بينها علاقات دُنيا وعليا مُتنوعة، إذ يهيمن فعل إنجازي مُحدّد على الأفعال الأخرى، ويُعيّن الهدف الكلي للنص، وتُستخدم الأفعال الإنجازية الأخرى في دعم هذا الفعل الإنجازي المُهيمن، وتأكيد نجاحه، وتُسمى أوجه إنجاز (مُساعدة)، فالمُتكلم يجب أن يتوخّى سوء الفهم والرفض وغير ذلك من المُستمع، أثناء بنائه لفعله الكلي^(٣٣)، ويُمكن توضيح هذا الرأي بالمثالين التاليين، الأول: (هناك توجد حقيقتي، هل تستطيع أن تراها؟ فلتحضرها إلي!)، والثاني: (أصبّت ببردٍ شديد، اذهب من فضلك إلى الطبيب، فلهُ عيادة قريبة جداً)، وحسب تصور بنية الإنجاز يكون التحليل كالآتي:

في المثال الأول تتابع الأفعال الكلامية للتقرير ثم الاستفهام ثم الطلب؛ فهي تُمهّد للطلب الذي يُكسب تتابع هذه الأفعال وظيفتها التواصلية، ومن خلالها يتضح قصد المُتكلم.

وفي المثال الثاني يوجد تتابع الأفعال الكلامية (تقرير فرجاء ثم تقرير)، والفعل الكلامي المُهيمن هنا (الرجاء) فقد علّل بالتقرير الأول وحُصّص بالتقرير الثاني، أي حُدّد بالنظر إلى إمكانية استجابة المُخاطب له تحديداً أكثر دقّة، فالفعل الإنجازي المدعوم من قبل الأفعال الإنجازية الأخرى هو الذي يُحدّد الهدف الكلي والمُراد إيصاله للمُتلقي بواسطة النص^(٣٤).

المبحث الثالث: الوظيفة الإنجازية في القرآن الكريم:

من خلال ما سبق يتبيّن أنّ "اهتمام المنهج التداولي باللغة لم يُعد مُنصباً على أنساقها التركيبية النحوية فحسب، وإنّما أصبح يُعنى بكيفية توظيف المُتكلم للمستويات اللغوية المختلفة في سياق مُعين، وذلك بربط

إنجازهِ اللغوي بعناصر السياق الذي حدث فيه؛ أي أصبحت اللغة تُستعمل في إنجاز أفعال؛ فالمُتكلِّم لا يُنتج كلمات دالة على معنى؛ بل يقوم بفعلٍ ما ويُمارس تأثيرًا ما على المُتلقي، وبالتالي أصبحت الوحدة الأساسية للغة هي الأفعال الكلامية" (٣٥)، فإنجاز القول في اللغة من أهم مميزات تلك اللغة، وما تعمل عليه في إيصال المراد للمتلقي.

ومثل تلك الوظيفة الإنجازية موجودة كثيرًا في القرآن الكريم، حتى إنَّ الدكتور عبد الرحمن مرواني لم يتوانى في أن يقول بأنَّ سورة البقرة هي كُلهَا فعلًا إنجازيًا، إذ يقول: "وتجدر الإشارة هنا إلى أنَّه بالإمكان اعتبار السورة فعلًا إنجازيًا عامًّا وشاملاً يتكوّن من مجموعة من الأفعال الصغرى (الفرعية)" (٣٦)، واستدلَّ على ذلك بقولٍ فان داك بأنَّ "متواليات أفعال الكلام الإنجازية، مثلها مثل الأفعال المُجرّدة تستدعي وضع تخطيطٍ وتأويل، أعني أنَّ بعض المتواليات الخاصّة بأفعال الكلام الإنجازية المتنوعة تنوي قصدًا وتخطيطًا، وتُفهم كما لو كانت فعلًا إنجازيًا واحدًا، ومثل فعل الكلام هذا مما يُجز بواسطة متوالية من الأفعال الكلامية يجوز أن نُطلق عليه الفعل الكلامي الشامل أو الفعل الكلامي الكلي" (٣٧)، ووفق كلام الدكتور مرواني ورأي فان داك فإنَّ سورة البقرة هي فعلٌ كلامي شاملٌ أو كليّ، لاحتواها على متواليات من الأفعال الكلامية الإنجازية التي تنوي قصدًا وتخطيطًا داخل النصّ، فتُصبح هذه المتواليات كأنها فعلًا إنجازيًا واحدًا، لإنجازها قصدًا واحدًا.

وما جاء في القرآن الكريم حول الوظيفة الإنجازية أو الأفعال الإنجازية قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (٣٨)، فاللفظتين (فليؤمن) و(فليكفر) أفعالٌ كلامية محتواها القضوي واحد إلا أنَّ قواهما الإنجازية تحمل أكثر من معنى، فظاهرها أنَّها طلب بالإيمان مرةً وبالكفر مرةً أخرى، لكن هناك قوّة إنجازية داخل هاتين اللفظتين تُبيّن الوعد والوعيد للكافرين، ويقول ابن عاشور في تفسير هذه الآية، وحول هاتين اللفظتين: "والأمر في قوله (فليؤمن) وقوله (فليكفر) للتسوية المكّنة بها عن الوعد والوعيد" (٣٩)، فمحتواها القضوي عن أمرٍ بالإيمان والكفر، لكنَّ القوّة الإنجازية داخلهما تُوضّح الوعد

والوعيد، كما أنّ القصدية داخل هذه الآية الكريمة واضحة وذلك في تقديم فعل الإيمان على فعل الكُفر، إذ إنّ الله سبحانه وتعالى "قدّم الإيمان على الكُفر لأنّ إيمانهم مرغوبٌ فيه... وفعلُ (يؤمن ويكُفر) مُستعملان للمُستقبل، أي من شاء أن يُوقع أحد الأمرين ولو بوجه الاستمرار على أحدهما المُلتبس به الآن فإنّ العزم على الاستمرار عليه تجديد لإيقاع" (٤٠)، فالقوة الإنجازية والقصدية داخل هاتين اللفظتين موجودين لإيصال المعنى للمُتلقي.

ومن أمثلة ورود الوظيفة الإنجازية للنسق في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ (٤١)، توجد قوة إنجازية داخل هذه الآية بألفاظها كافة، إذ إنّ ظاهر هذه الآية إخبارٌ من الله سبحانه وتعالى للنّاس بأنّ هذه الحياة هي متاعٌ ولهو، وإنّما هناك قوة إنجازية ضمنية فعلها غير ظاهر داخل هذا المحتوى القضوي وهي (أقول احذروا...) (٤٢)، أي احذروا من أن تغرّمكم الحياة الدنيا بلهوها وزخرفها فـ "الغرور: الخديعة، أي إظهار الأمر الضار الذي من شأنه أن يحترز العاقل منه في صورة النافع الذي يُرغب فيه... أي متاعٌ صائرٌ لأجل الغرور به، أي آيلٌ إلى أنّه يغرّ الناظرين إليه فيسرعون في التعلّق به" (٤٣)، حيث إنّ وراء تلك الصورة البرّاقة لتلك الحياة وبهرجتها امتحانٌ عظيم من الله عزّ وجلّ، لذلك يتوجّب الحذر منكم. ويُستخلص من هذا البحث أنّ للنص مهمّة قولية لا بدّ للمتكلّم أن يُنجزها، مثلما يُنجز أعمالٌ مُعيّنة بيديه، وإنّ هذه النّسق اللغوي، إذ إنّ اللغة تعبيراتٍ لا بدّ للمتكلّم أن يُنجزها، مثلما يُنجز أعمالٌ مُعيّنة بيديه، وإنّ هذه التعبيرات لا تُقال لمجرد الإخبار بها، وإنّما تُقال لإنجاز فعلاً قولياً يُراد من خلاله إفهام المُتلقي، وإيصال فكرة القول له، وهذه الوظيفة تقوم على ثلاثة جوانب هي: الفعل اللفظي المُتألف من أصواتٍ لغوية تُركّب بواسطة قواعد نحوية، تُنتج معنى، والثاني هو: الفعل الإنجازي المؤدّي من خلال الفعل اللفظي من معنى إضافي خلف المعنى الأصلي، والثالث هو: الفعل التأثيري الذي يُؤدّي الفعل الإنجازي، وبالتالي إداء الوظيفة الإنجازية لمهمتها.

الهوامش:

- (١) يُنظر: الأنساق الأسلوبية المهيمنة على السورة القرآنية: ١٨٤.
- (٢) يُنظر: في اللسانيات التداوئية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم: د. خليفة بوجادي، ٥٣.
- (٣) يُنظر: التداوئية عند العلماء العرب، دراسة تداوئية لظاهرة (الأفعال الكلامية) في التراث اللساني العربي: د. مسعود صراوي، ١٠، ويُنظر: المُصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب: دومينيك مانغونو، ترجمة: مُحمَّد يحياتن، ٧.
- (٤) التداوئية عند العلماء العرب: ١٠.
- (٥) يُنظر: مُستويات الأفعال الكلامية في الخطاب القرآني، سورة الكهف أنموذجًا: خلوفي قُدور، رسالة دكتوراه، جامعة وهران، أحمد بن بلة، كلية الآداب واللغات والفنون، الجزائر، ٢٠١٤-٢٠١٥، ١٢.
- (٦) يُنظر: في اللسانيات التداوئية: ٥٤، و ٩٠.
- (٧) يُنظر: في اللسانيات التداوئية: ٨٩-٩٠، و ٩٥.
- (٨) التداوئية عند العلماء العرب: ١٠.
- (٩) يُنظر: التداوئية عند العلماء العرب: ١٠.
- (١٠) التداوئية عند العلماء العرب: ٤٠.
- (١١) يُنظر: النَّص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي: فان دايك، ترجمة: عبد القادر قنيني، ٢٦٣، ويُنظر: في اللسانيات التداوئية: ٨٩.
- (١٢) آفاق جديدة في البحث اللغوي المُعاصر: د. محمود أحمد نخلة، ٤٤-٤٥، ويُنظر: التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد: ١٤٢-١٤٣، و: مُستويات الأفعال الكلامية في الخطاب القرآني: ٢٣-٢٤.
- (١٣) يُنظر: نظرية أفعال الكلام العامة، كيف نُنجز الأشياء بالكلام: جون أوستين، ترجمة: عبد القادر قنيني، ١٢٣-١٢٤، و: آفاق جديدة في البحث اللغوي المُعاصر: ٤٥-٤٦، و: دائرة الأعمال اللغوية، مُراجعات ومُقتراحات: د. سُكري المبخوت، ١٠، و: نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المُعاصرين والبلاغيين العرب: طالب سيد هاشم الطباطبائي، ٧-٩، و: الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة، دراسة نحوية تداوئية: د. خالد ميلاد، ٤٩٧.
- (١٤) يُنظر: الأنساق الأسلوبية المهيمنة: ١٨٥، ويُنظر: التداوئية عند العلماء العرب: ٤٢.

- (١٥) يُنظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٤٦، و: التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد: صلاح إسماعيل عبد الحق، ٢٢٢-٢٢٤، و: نظرية الأفعال الكلامية: ١٠-١١، و: الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة، دراسة نحوية تداولية: ٥٠٠.
- (١٦) يُنظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٤٧، ويُنظر: التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد: ٢٢٢، و: التداولية اليوم، علم جديد في التواصل: آن روبول وجاك موشلار، ترجمة: د. سيف الدين دغفوس ود. مُحمَّد الشيباني، مراجعة: د. لطيف زيتوني، ٣٣، و: تعديل القوة الإنجازية، دراسة في التحليل التداولي للخطاب، ٣١١، ضمن: التداوليات، علم استعمال اللغة، و: في اللسانيات التداولية: ٥٣.
- (١٧) يُنظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٤٧-٥١.
- (١٨) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٤٨، ويُنظر: التداولية اليوم، علم جديد في التواصل: ٣٤.
- (١٩) يُنظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٤٩-٥٠، و: نظرية الأفعال الكلامية: ٣٠-٣٤، و: التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد: ٢٣٢-٢٣٧، و: الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة، دراسة نحوية تداولية: ٥٠٥-٥٠٨، و: في اللسانيات التداولية: ٩٨-١٠٠.
- (٢٠) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٥٠-٥١.
- (٢١) يُنظر: تعديل القوة الإنجازية، دراسة في التحليل التداولي للخطاب، ٣١١-٣١٢، ضمن: التداوليات، علم استعمال اللغة، و: العقل واللغة والمجتمع، الفلسفة في العالم الواقعي: جون سيرل، ترجمة: سعيد الغانمي، ٢٠٣-٢٠٤.
- (٢٢) البخلاء: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق: مُحمَّد علي أبو العباس، ٢٣.
- (٢٣) تعديل القوة الإنجازية، دراسة في التحليل التداولي للخطاب، ٣١٢-٣١٣، ضمن: التداوليات، علم استعمال اللغة.
- (٢٤) يُنظر: العقل واللغة والمجتمع: ٢٠١-٢٠٣.
- (٢٥) يُنظر: العقل واللغة والمجتمع: ٢٠٣، و: في اللسانيات التداولية: ٥٣-٥٤.
- (٢٦) كلمات من قصيدة شعرية باللغة الألمانية معناها: (هل تعرف الأرض التي تُزهر فيها الليمون؟) للأديب غوته، قيلت في رواية له اسمها (سنوات تعلّم فيلهلم مايبستر).
- (٢٧) يُنظر: مستويات الأفعال الكلامية في الخطاب القرآني: ٣٦.
- (٢٨) يُنظر: الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة، دراسة نحوية تداولية: ٥١١.
- (٢٩) يُنظر: استراتيجيات الخطاب: ١٩٠.

- (٣٠) في اللسانيات التداولية: ١٠٠-١٠٢، ويُنظر: التداولية من أوستن إلى غوفمان: فليب بلانشيه، ٥٨.
- (٣١) يُنظر: الأنساق الأسلوبية المهيمنة في السورة القرآنية: ١٨٧.
- (٣٢) تعديل القوة الإنجازية، دراسة في التحليل التداولي للخطاب، ٣٠٨، ضمن: التداوليات، علم استعمال اللغة، ويُنظر: النص والسياق: ٣١٦-٣١٧.
- (٣٣) يُنظر: التحليل اللغوي للنص، مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج: كلاوس برينكر، ترجمة: د. سعيد حسن بحيري، ١٣٣-١٣٤.
- (٣٤) التحليل اللغوي للنص: ١٣٤-١٣٥.
- (٣٥) مستويات الأفعال الكلامية في الخطاب القرآني: ١١.
- (٣٦) أفعال الكلام في القرآن ودورها في إنتاج المعنى وترجمته إلى اللغة الفرنسية: عبد الرحمن مرواني، بحث منشور في مجلة إشكالات في اللغة والأدب، الجزائر، المجلد ٨، العدد ٣، ٢٠١٩، ٥٣٤.
- (٣٧) النص والسياق: ٣١٦.
- (٣٨) سورة الكهف: ٢٩.
- (٣٩) التحرير والتنوير: ١٥ / ٣٠٧.
- (٤٠) التحرير والتنوير: ١٥ / ٣٠٧.
- (٤١) سورة الحديد: من الآية ٢٠.
- (٤٢) يُنظر: في اللسانيات التداولية:
- (٤٣) التحرير والتنوير: ٢٧ / ٤٠٧.

المصادر والمراجع:

❖ القرآن الكريم.

١. استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية: عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد، بيروت-لبنان، ط١، ٢٠٠٤م.
٢. آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: د. محمود أحمد نخلة، دار المعرفة الجامعية، مصر، (د.ط)، ٢٠٠٢م.
٣. الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة، دراسة نحوية تداولية: د. خالد ميلاد، إصدارات جامعة منوبة-تونس، بالاشتراك مع المؤسسة العربية للتوزيع، تونس، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

٤. البُخلاء: أبو عُثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق: مُحَمَّد علي أبو العباس، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، مكتبة الأسرة، (د.ط)، ٢٠١٢م.
٥. التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد: صلاح إسماعيل عبد الحق، دار التنوير، بيروت-لبنان، ط١، ١٩٩٣م.
٦. التحليل اللغوي للنّص، مدخل إلى المفاهيم الأساسيّة والمناهج: كلاوس برينكر، ترجمة ومهّد له وعلق عليه: د. سعيد حسن بحيري، مؤسّسة المُختار، القاهرة، ط٢، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.
٧. التداوُلِيّات، علم استعمال اللغة: حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، إربد-الأردن، ط٢، ٢٠١٤م.
٨. التداوُلِيّة عند العُلماء العرب، دراسة تداوُلِيّة لظاهرة (الأفعال الكلاميّة) في الثّراث اللساني العربي: د. مسعود صحراوي، دار الطليعة، بيروت-لبنان، ط١، ٢٠٠٥م.
٩. التداوُلِيّة من أوستن إلى غوفمان: فيليب بلانشيه، ترجمة: صابر الحباشة، دار الحوار، اللاذقية-سوريا، ط١، ٢٠٠٧م.
١٠. التداوُلِيّة اليوم، علم جديد في التواصُل: آن روبول وجاك موشلار، ترجمة: د. سيف الدين دغفوس ود. مُحَمَّد الشيباني، مُراجعة: د. لطيف زيتوني، المنظّمة العربيّة للترجمة، بيروت-لبنان، ط١، ٢٠٠٣م.
١١. تفسير التحرير والتنوير: مُحَمَّد الطاهر بن عاشور، الدار التونسيّة للنشر، تونس، (د.ط)، ١٩٨٤م.
١٢. دائرة الأعمال اللغويّة، مُراجعات ومُقتراحات: د. سُكري المبخوت، دار الكتاب الجديد، بيروت-لبنان، ط١، ٢٠١٠م.
١٣. العقل واللغة والمُجتمع، الفلسفة في العالم الواقعي: جون سيرل، ترجمة: سعيد الغانمي، منشورات الاختلاف، الجزائر، بالاشتراك مع: المركز الثقافي العلمي، المغرب، والدار العربيّة للعلوم، بيروت-لبنان، ط١، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.
١٤. في اللسانيّات التداوُلِيّة مع مُحاولة تأصيليّة في الدرس العربي القديم: د. خليفة بوجادي، بيت الحكمة، الجزائر، ط١، ٢٠٠٩م.
١٥. المُصطلحات المفاتيح لتحليل الخُطاب: دومينيك مانغونو، ترجمة: مُحَمَّد يحياتن، الدار العربيّة للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٨م.
١٦. النّص والسياق، استقصاء البحث في الخُطاب الدلالي والتداوُلِي: فان دايك، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء-المغرب، (د.ط)، ٢٠٠٠م.
١٧. نظريّة أفعال الكلام العامّة، كيف تُنجز الأشياء بالكلام: جون أوستين، ترجمة: عبد القاهر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء-المغرب، (د.ط)، ١٩٩١م.

١٨. نظريّة الأفعال الكلاميّة بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب: طالب سيد هاشم الطباطبائي، مطبوعات جامعة الكويت، الكويت، (د.ط)، ١٩٩٤م.
الرسائل الجامعيّة والبحوث المنشورة:
١٩. الأنساق الأسلوبية المهميّة على السورة القرآنيّة-دراسة تطبيقيّة على السور المكيّة: خالد توفيق مزعل الحسناوي، رسالة دكتوراه، كليّة الآداب-جامعة الكوفة.
٢٠. مستويات الأفعال الكلاميّة في الخطاب القرآني، سورة الكهف أنموذجاً: خلوفي قُدور، رسالة دكتوراه، جامعة وهران، أحمد بن بلة، كلية الآداب واللغات والفنون، الجزائر، ٢٠١٤-٢٠١٥.
٢١. أفعال الكلام في القرآن ودورها في إنتاج المعنى وترجمته إلى اللغة الفرنسيّة: عبد الرحمن مرواني، بحث منشور في مجلّة إشكالات في اللغة والأدب، الجزائر، المجلد ٨، العدد ٣، ٢٠١٩.